المحاضرة رقم :06 الإتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا الإقتصادية" الاتجاهات الكلاسيكية"

لقد اهتم العديد من الباحثين والأنثروبولوجيين الأوائل من خلال الدراسات التي أجروها في علاقة الاقتصادي بالمجتمعي إلى محاولة التوصل إلى صياغة نظريات علمية في الأنثروبولوجيا الاقتصادية، ومن بين هؤلاء نذكر على التوالي: ريموند فيرث ، وهرسكوفيتس وهذا خلال نهاية عقد الثلاثينيات وبداية عقد الأربعينيات من القرن العشرين.

ومع اقتراب نهاية عقد الخمسينيات من القرن العشرين قام كارل بولاني وتحديدا عام 1957 بنشر مقالة عن :" التجارة والسوق في الإمبراطوريات القديمة" حيث فجرت مقالته هذه جدلا نظريا كبيرا في الأنثروبولوجيا الاقتصادية.

ونظرا لأهمية مضمون مقالة كارل بولاني فقد ارتبطت بعملية توجيه ذلك الجدل بحيث أصبح أساسا يستهدف الوصول إلى بعض التصورات التحليلية التي تتناسب مع دراسة وتحليل العمليات الاقتصادية الواقعية، وكذلك محاولة الوصول إلى نوع التساؤلات التحليلية التي يجب بحثها عند دراسة اقتصاديات المجتمعات الأولى والمجتمعات الريفية أو المجتمعات التقليدية، هل هي نفس التساؤلات التي يبحثها الذين يتناولون الاقتصاد الغربي الرأسمالي؟ أم أنها أسئلة يجب صياغتها بحيث تربط بين الاقتصاد من ناحية والنظام الاجتماعي ككل من ناحية أخرى؟ [1]

وإذا كان المقتضى الابستيمولوجي والمنهجي عند القيام بدراسة أو بحث علمي سواء أكان نظريا أم ميدانيا، يستوجب الانطلاق من خلفية نظرية محددة وواضحة، ولكن الأمر في الدراسات والأبحاث في الأنثروبولوجيا الاقتصادية تكتسيه صعوبات عدة من أبرزها صعوبة موضوع البحث في علم الإنسان الاقتصادي، والأمر الثاني أن البحوث التي أجريت كانت في مجملها حول المجتمع الصناعي في العالم الغربي وجانبت وابتعدت عن دراسة نظما مختلفة ومغايرة أو نظما جديدة ناشئة، ناهيك عن اهتمامها بالمجتمعات البدائية أو الريفية، حيث تركز

[1] - عبد الله عبد الغني غانم:"النظرية في علم الإنسان الاقتصادي،

جل الاهتمام على علم الاقتصاد التقليدي. كما أن الاهتمام بدراسات التنمية بالبلدان حديثة الاستقلال بافريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وما حصل من تغير اجتماعي واحتكاك ثقافي وجه الاهتمام نحو التوصل لصياغة نماذج نظرية مناسبة لوضع هذه المجتمعات والبلدان.

ويرى الأنثروبولوجي الاقتصادي دالتون أن الباحث في الأنثروبولوجيا الاقتصادية سوف يجد أمامه مداخل ثلاثة، وإضافة إلى المداخل الثلاثة لدالتون يمكن إضافة مدخل التفسير التطوري، وفيما يلي تفصيل الاتجاهات النظرية في مجال الأنثروبولوجيا الاقتصادية:

أولا: التفسيرات التطورية للنظم الاقتصادية أو النظرية التطورية

وهناك من يرى أن مفاهيم التطور في الدراسات والأبحاث الثقافية التي هيمنت على التفكير الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر يمكننا القول أنها تعود إلى محطات بحثية وفكرية أسبق من الوقت الذي ظهرت فيه آراء الداروينية، فهي تعود إلى فلاسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر بالخصوص الذين أقروا أن البشرية في تطور دائم باتجاه التقدم، وأن المجتمعات تسير وفق منحنى تصاعدي من الحالة البسيطة نسبيا من حيث تنظيمها إلى الحالة الأكثر تعقيدا واختلافا، وكان فلاسفة التنوير من أمثال تورغو"1727-1781" وكوندورسيه الذين شكلوا من خلال بعض طروحاتهم منطلق الآراء التي أسهمت في تكوين نظرية التطور الثقافي، فحسبهم أن تاريخ البشر يمكن النظر إليه من زاوية الارتقاء والتطور من المرحلة البسيطة إلى مرحلة الحضارة المعقدة.

وكان كوندرسيه " انطونيان كوندرسه عالم اجتماع فرنسي ينتمي إلى الفلاسفة التاريخيين، تبنى الأفكار الثورية بالرغم من انتمائه للطبقة الارستقراطية" قد شرح مسار تقدم الإنسانية من خلال كتابه المعنون " شكل تاريخي لتقدم العقل البشري عام 1774" مبرزا تطور الإنسانية وفق خط مستقيم في تصاعد دائم نحو الأعلى والأفضل، من خلال مراحل محددة، وكان يرى أن الثقافة والتربية والتعليم هي العناصر الأساسية لضمان التقدم والتطور، دون إهمال دراسة المواضيع الأخلاقية والطبيعية، ولما كان كوندرسيه من

الفلاسفة التاريخيين فهو يرى أن التاريخ هو اكتشاف وتطبيق لقوانين التقدم الاجتماعي، وكان متفائلا لتقدم الإنسانية نحو الأفضل.

ويرى أصحاب التقدم الاجتماعي أن المجتمعات في تغيراتها تسير وفق خط متصاعد، بمعنى الارتقاء والتطور دوما، وذلك وفق مراحل محددة، وغالبا ما تكون المرحلة اللاحقة أفضل من التي سبقتها، ويظل هذا التغير مستمرا، وقانون التقدم لديهم معمم على كل المجتمعات، ومن أبرز ممن نظروا في هذا الاتجاه إلى جانب كوندرسيه، نجد جون جاك روسو J,J Rousseau، وأوجست كونت A.Comte إضافة بعض من أقولهم

وفي هذا المضمار كان أنصار التقدم قد وضعوا ورسموا مراحل كانت مبنية على فرضيات وظنون، أبرزوا من خلالها ارتقاء وتطور الثقافة البشرية من الخليقة، ثم ارتكاب الخطيئة، فالهبوط ومنها إلى زمن الطوفان، مرورا بالحقب التاريخية التي استطاع فيها الإنسان أن ينتظم في شكل مجموعات، وصار يمارس بعض الأنشطة كالجمع والصيد، ثم استئناس الحيوان، واكتشاف الزراعة مما حقق له الاستقرار، وبالتالي بروز فكرة الملكية، والملكية الفردية لاحقا، بالإضافة إلى ظهور التجمعات المستقرة في شكل قرى، ومنها التدرج من مستوى تكنولوجي إلى مستوى أرقى منه ثم الوصول إلى الحضارة الحديثة.

وحسب النظرية التطورية فالمجتمعات البشرية كافة تطورت انطلاقا من أصول هي" نظرية وحدة الأصل ، Monogéniste" أو متشابهة على الأقل " نظرية تعدد الأصل، Polygéniste" وقد خيل إلى العديد من الباحثين بان كل المجتمعات كانت مرشحة لأن تختار نفس الأطوار بنوع من الضرورة الداخلية وشبه البيولوجية.(1)

وبذلك سعت التطورية إلى البحث في أصل ونشأة كل المؤسسات والنظم التي هي عند الإنسان يعيش بمقتضاها، فتمت أبحاث حول الزواج، العائلة، القرابة، الملكية الاقتصادية، النظم القانونية، الدين، وكان للعلامة والباحث الأنثربولوجي " لويس مورغان" أبحاث جادة في هذا المجال، وكان للاتجاه

[1]- Pierre Erny; ethnologie de l éducation; Presses universitaires de France

التطوري تأثيرا فيما بعد على المدرسة الماركسية. هذه الأخيرة أقر مفكروها أن الإنسانية تمر بمراحل منها: المجتمع البدائي، الرق، الإقطاع، الرأسمالية، ثم تصل الإنسانية إلى مرحلة الاشتراكية.

وفي هذا السياق يذكر بدوي سيد:" لقد مر التنظيم الاقتصادي بمراحل مختلفة واختلفت نماذج الحياة الاقتصادية باختلاف درجة الحضارة:" واتفق العلماء على أن المرحلة الأولى هي مرحلة الصيد، وتبعتها مرحلة الرعي ثم مرحلة الزراعة البدائية ثم مرحلة الزراعة الراقية التي استخدم فيها الإنسان الوسائل الصناعية، ونستطيع أن نضيف الى هذه المرحلة مرحلة الصناعة الحديثة التي بدأت على أثر استخدام قوة البخار ومرحلة التجارة العالمية التي ترتبت على ما أطلق عليه اسم الإنتاج الضخم. ".[1]

وإذا تتبعنا التفسيرات التطورية للحياة في جانبها الاقتصادي، يمكننا التمييز بين تيارين بارزين، أما الأول فيركز على تتبع مراحل التطور الاقتصادي لدى الإنسان من خلال التركيز على دراسة وتفسير تطور وسائل الإنتاج، حيث يركز على عملية " الإنتاج" ، ويؤكد أصحاب هذا التيار أن التغيرات والتحولات التي تحدث في الجانب الاقتصادي تؤثر حتما على باقي الأنساق المجتمعية.ومن أبرز منظري هذا التيار نجد هنري لويس مورغان، وكارل ماركس.

ويرى مورغان أن الإنسان في حالة تطور وتقدم مستمرة من مرحلة إلى أخرى عبر الزمن، وحسبه أن الإنسان انتقل من مرحلة التوحش:" ويمكننا القول أنها مرحلة عطاء مصادر الطبيعة" ثم تدرج عبر الزمن وتجارب الحياة المختلفة إلى أن بلغ مرحلة الحضارة ومن معالمها توصل الإنسان إلى اختراع حروف الهجاء وقدرته على ممارسة الكتابة وهي مستمرة إلى وقتنا الحالي.، ولقد كانت الأدوات والأسلحة المختلفة التي اخترعها الإنسان على مر الزمن هي الوسائل الرئيسية التي ساعدته على زيادة سيطرته على الطبيعة والارتقاء بنفسه، وبعبارة أخرى يرى مورغان أن التقدم التكنولوجي يؤدي إلى حدوث تغيرات جوهرية في النظم الاجتماعية السائدة مثل العائلة ونظام الملكية والحكومة.[2]

---

1 – السيد محمد بدوي: علم الاجتماع الاقتصادي،

2 – علي محمود إسلام الفار: الأنثروبولوجيا الاجتماعية،

إن لويس مورغان يركز على تتبع التطور في وسائل الإنتاج:" تكنولوجيا الإنتاج" خصوصا الوسائل ذات الصلة بالسيطرة على مصادر العيش والغذاء، مما ينعكس على تطويرها وتوسعها وهذا بدوره يؤثر على الثقافة والنظم الاجتماعية ويحدث بها تطورا من مستوى إلى آخر، ويتحكم في نوعية وشكل المجتمع ككل، وهذا أدى بالإنسان إلى اكتشاف الزراعة في مرحلة ثم الصناعة في مراحل متقدمة، كما استقر الإنسان في شكل جماعات وتجمعات وقبائل إلى أن وصل إلى مرحلة استحداث المدينة والحياة الحضرية. ويظل استلزام التغير والتطور في وسائل وتكنولوجيا الإنتاج أن يحدث أثرا في أنساق المجتمع الأخرى وهذا لضمان التكامل والتوازن في حياة المجتمع.

وباختصار وتماشيا مع سياق المحاضرة والمقرر الدراسي فيمكن القول أن لويس مورغان :"1818،1881" يعد من رواد التطورية في بعدها الاجتماعي، غير أن تركيزه على دراسة أثر العامل التكنولوجي من المستويات البسيطة إلى التعقيدات المعاصرة في حياة المجتمعات، واعتبر العوامل التكنولوجية هي المسؤولة عن حدوث التغير في كل المستويات بأي مجتمع بشري، ومع تتبع مورغان لأثر العوامل التكنولوجية والإنتاج كأسلوب عملياتي وعلاقة ذلك بحدوث تغيرات بالأنساق المجتمعية الأخرى، وهذا الذي صنف طروحات مورغان على أنها إسهامات مبكرة في علم الإنسان الاقتصادي، وكانت هذه الأفكار التي جاء بها مورغان قد شكلت إلهاما كبيرا لكارل ماركس لاحقا في صياغة أسس نظريته الاقتصادية–الاجتماعية. خصوصا في كتابه:" رأس المال" حيث أبرز ماركس خطوات التطور مطبقا إياها على نشأت الرأسمالية– التي تقوم على التنافس– ثم نموها ثم بلوغها مرحلة القمة، ثم نهايتها الحتمية لاحقا.وهذا القانون كما ينطبق على الكائنات الحية فهو كذلك يسري على الكائنات الاجتماعية أفكارا وأفرادا ومؤسسات.

وقد كان لهذه النظرية التطورية أتباع جدد من الماركسيين من أمثال:" ميسو" و "جودلير" حيث يرى هؤلاء أن نظريات الاقتصاد المعاصر والتي استخلصت من ظروف المجتمعات الرأسمالية لا تتناسب مع تحليل المجتمعات التي سبقت الرأسمالية ويوضح هيرسكوفيتس أثر لويس مورغان في أعمال كارل ماركس وانجلز بقوله أن أنجلز وماركس قد حاولا في الواقع التوصل إلى المبادئ العامة للتطور

الاجتماعي وذلك بالرجوع إلى مراحل الثقافة stage of culture التي قال بها لويس مورغان في كتابه عن المجتمع القديم. [1]

هذا الكتاب :" المجتمع القديم" الذي يعد أشهر أعمال لويس مورغان، حيث لقي اهتماما كبيرا بالدرس والشرح وتحقيق الفائدة من قبل انجلز وماركس ووصفاه على أنهم مجهود خارق وعمل عظيم، واستقبلت طروحات لويس مورغان بحفاوة كبيرة في أوساط المفكرين الذين كانوا يتبنون الشيوعية وقتها، كما قامت أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتي سابقا بترجمة وطبع كتاب :" المجتمع القديم" ووفاء لمورغان وعملا بطروحاته الفكرية أقام له علماء الأنثروبولوجيا احتفالية واحتفائية به، بعد مرور خمسين سنة من وفاته.

وكانت النظرية التطورية قد تعرضت لانتقادات شديدة، فقد رفض الكثير من العلماء والباحثين فكرة التطور في مجال الحياة الاقتصادية، وتحديدا فكرة التطور الخطي للملكية خصوصا ما أكده ماركس في هذا المجال، فقد تبين لهم أنه من الصعب تحديد طابع حقوق الملكية ومداها.

أما التيار الثاني ورغم اندراجه ضمن الاتجاه التطوري فانه يختلف عن التيار الأول من حيث اهتمامه بوحدة الإنتاج ووحدة الاستهلاك والعلاقة بينهما، ومن أبرز منظريه نجد كارل بوشر الألماني، وهايت.

لقد كان أساس التحليل التطوري عند كارل بوشر هو دراسة العلاقة بين الوحدة المنتجة من ناحية والوحدة المستهلكة من ناحية أخرى، وعليه كان تحليل بوشر أكثر تحديدا والتصاقا بالمجال الاقتصادي من تحليل مورغان، الذي لم يكن اهتمامه الأساسي موجها إلى الاقتصادي في ذاته، وإنما إلى تحليل مسار الحضارة والثقافة الإنسانية.

وقد ميز كارل بوشر هنا بين ثلاثة مراحل، **أما المرحلة الأولى** فقد تميزت بما سمي بالوحدة أو العائلة المكتفية ذاتيا"**self sufficient family**، والتي تنتج أساسا للاستهلاك المباشر، ولا تستهدف مبادلة

[1] - عبد الله عبد الغني غانم:"النظرية في علم الإنسان الاقتصادي،

إنتاجها ولا يدخل التبادل ضمن عمليات الإنتاج، إنها مرحلة الاقتصاد العائلي وبالتالي لا وجود لعمليات التسويق، وبالتالي لا وجود لأي شكل من أشكال النقود، وغياب العمل المأجور، وبالتالي انعدام أي شكل من أشكال الأجور، إنها مرحلة الوحدة الإنتاجية القاصرة على الاقتصاد البدائي، دون الاقتصاد الريفي أو القبلي. **والمرحلة الثانية** ما أن اقتربت المرحلة السابقة على الانتهاء حتى كانت بوادر مرحلة الاقتصاد المدني قد ازدهرت، فظهر التخصص وأسس التبادل، وأصبح المنتجون ينتجون لجمهور المستهلكين، ولم تعد الوحدة الاقتصادية هي العائلة، بل نشأت محلات وصناع وورشات. شأن ما كان في الحضارات السابقة، **أما المرحلة الثالثة** فقد سميت بمرحلة الاقتصاد الأهلي وفي هذه المرحلة يظهر الوسطاء وتنتقل السلع بين المنتجين والمستهلكين بواسطة هؤلاء، وفي هذا الوقت أدى التطور السياسي في أوربا واتحاد الإقطاعيات المختلفة تحت لواء الحكومة إلى توسيع الحياة الاقتصادية وجعلها شاملة للدولة كلها.[1]

[1] - عبد الله عبد الغني غانم:"النظرية في علم الإنسان الاقتصادي،